

مظاهر البيان في الحديث النبوي الشريف

د. إبراهيم لقان

المركز الجامعي - ميله

الملخص:

الحديث النبوي الشريف هو الأثر الثاني بعد القرآن الكريم من حيث مظاهر البلاغة والبيان. وتعتبر بلاغته صلى الله عليه وسلم من دلائل نبوته، فهو صاحب اللسان المبين، والمنطق المستقيم، والحجة البالغة. وقد بُعث في قوم لهم مقامات مشهورة في البيان، فكان أبلغهم إذا تكلم، وأفصحهم إذا أبان، وأسدُّهم عبارة وأجملهم أسلوباً. وقد تعددت وجوه بلاغته صلى الله عليه وسلم، منها ما تعلق بالمعاني، ومنها ما تعلق بالبيان (أي بطرق أداء هذه المعاني)، ومنها ما تعلق بالبدیع (أي بطرق تحسين هذه المعاني)، وهذه ميادين واسعة للبحث مترامية الأطراف، لا يمكن لباحث أن يطرقها أو يصل إلى أغوارها.

وهذا المقال هو محاولة تستجلي أحد الوجوه البلاغية الثلاثة السابقة من كلامه صلى الله عليه وسلم، وهو علم البيان الذي يبحث في العناصر الآتية: التشبيه والاستعارة والكناية، لتحديد سر جمالها وأثرها على النفس من خلال ثلاثة أحاديث نبوية شريفة.

الكلمات المفتاحية: مظاهر؛ الحديث النبوي؛ علم البيان؛ التشبيه؛ الاستعارة؛ الكناية.

Abstract:

The Prophetic Hadith comes after the Holy Quran in terms of manifestations of rhetoric and eloquence, and one of the signs of prophecy is the prophet's eloquence, peace be upon him. He was silver-tongued and endowed with correct pronunciation and articulation together with the right argument. The prophet was sent to folk highly ranked in rhetoric. Yet, he was the most eloquent, and most fluent using the right words with the most beautiful style. The prophet, peace be upon him, had diverse modes of rhetoric some of which are related to meanings, others to eloquence (i. e. ways of demonstrating these meanings), and others. to ways of improving these meanings. These are broad fields of research, and no researcher can ever reach them or go deeper inside them.

This article is an attempt to clarify one of the three rhetorical modes of the prophet's speech aforementioned i. e. eloquence which examines the following elements: comparison, metaphor and metonymy to determine the secret of their beauty and their impact on the self through three prophetic traditions.

Keywords: Features. Hadith, eloquence, comparison, metaphor, metonymy.

تمهيد

يعد البحث في بلاغة الحديث النبوي الشريف شأنًا كبيرًا وشرفًا عظيمًا للباحث، فالحديث النبوي هو المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، وهو الميّن لما في القرآن الكريم من معان وأحكام، وهذا ما تضمنته الآية الكريمة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: 44).

وتعد بلاغته صلى الله عليه وسلم من أبرز مظاهر عظمتها، وأوضح دلائل نبوته، فهو صاحب اللسان المبين، والمنطق المستقيم، والحكمة البالغة، والمعجزة الخالدة، وقد زكى الله تعالى نطقه حيث قال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195)﴾. (الشعراء: 192-195).

وقد نشأ صلى الله عليه وسلم في أفصح القبائل وأصفهاها نطقًا، وأعذبها بيانًا، فكان مولده في بني هاشم - من أوسط قريش شرفًا - ورضاعته في بني سعد بن بكر، ونشأته في قريش - أم القرى - وزواجه في بني أسد، ومهاجرته إلى بني عمرو (الأوس والخزرج) أي الأنصار، ولهذا قال: "أوتيت جوامع الكلم"¹.

ولم تكن هذه الشهادات تظاهرها وافتخارا منه، وإنما كانت تقريرًا لحقائق ربانية، فقد كانت هذه البلاغة والفصاحة توفيقًا من الله وتوقيفًا، وهبة وهما إياه، ليتحمل الرسالة التي كانت في حد ذاتها معجزة، إذ بعثه الله في العرب وهم قوم لهم مقامات مشهورة في البيان والفصاحة، على اختلاف في اللهجات، فكان يخاطب كل قوم بلهجتهم وعلى مذهبهم، "ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابًا، وأسدّهم لفظًا، وأبينهم عبارة، ولم يعرف ذلك لغيره من العرب"². فكانت هذه البلاغة معجزة تحدى بها الإنس والجن.

ولهذا فلا غرابة أن يمثل الحديث الشريف القمة الثانية الشامخة في البلاغة الإنسانية بعد كتاب الله عز وجل، يقول مجد الدين بن الأثير في وصف بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم: "وقد عرفت -أيديك الله- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب لسانًا، وأوضحهم بيانًا، وأعذبهم نطقًا وأسدّهم لفظًا، وأبينهم لهجة، وأقربهم حجة، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلى طريق الصواب، تأييدًا إلهيًا، ولطفًا سماويًا، وعناية ربانية، ورعاية روحانية، حتى لقد قال له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه - وسمعه يخاطب وفد بني نهد -: يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره. فقال: "أدبني ربي فأحسن تأديبي، وربيت في بني سعد"³.

وقد اتفق كبار الباحثين في علوم البيان والعارفون بالبلاغة على مر العصور أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان في زمانه المثل الأعلى في فصاحة اللسان، وبلاغة القول وروعة البيان، وقد ورد في القرآن الكريم ما يزيل دهشة الحائر عن سرك تلك البلاغة حيث قال جلّ شأنه واصفاً نبيه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾. (النجم: 3-4).

وعلى الرغم من هذه الأهمية للحديث النبوي الشريف، فإن الدراسات البلاغية - عصر التدوين- تركزت في كتاب الله عزّ وجلّ، باعتباره أول كتاب دَوّن في تاريخ اللغة العربية، وإنما نشأت حركة التدوين والتأليف بعد ذلك، وعلى ضوئه سارت وبإشرافه تأثرت فكثير البحث في بلاغته وسر إعجازه، وعلومه المختلفة، وهذا ما لم يتوفر للحديث النبوي الشريف، فلم يُحلّل الدارسون النصوص النبوية، ولم يتعرضوا لدراسة مزايا أسلوبها، وبيانها، بل اكتفوا بتخريج الأحاديث وتصحيحها وترتيبها وتبويبها، وذكر أسانيدھا وشرح معانيها، والتثبت في الراوي والمروي، وقلّ تناولهم للجوانب البلاغية فيها، فشحت المصنفات في هذا المضمار.

ومن هذه الدراسات التي تعد قليلة مقارنة بما كتب حول القرآن الكريم في الجانب البلاغي نذكر على سبيل المثال لا الحصر: (المجازات النبوية) للشريف الرضي، توفي سنة 465هـ، و (النهاية غي غريب الحديث والأثر) لابن الأثير، توفي سنة 606هـ، ومن الدراسات المعاصرة كتاب (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) لمصطفى صادق الرافعي، وكتاب (كنوز السنة) للصابوني، وكتاب (التصوير الفني في الحديث النبوي) لمحمد الصباغ.

ونظرا لعدم اتساع الدراسة في هذا الحقل المعرفي (الجانب البلاغي للحديث النبوي الشريف)،

فإن مجال القول فيه ما زال رحبا، والبحث ما زال واسعا متيسرا لمن أراد أن يخوض غماره، وينهل من معينه.

ولا مراء في أن الحديث النبوي الشريف من أقرب الأمور إلى النفس السوية، إذا تأملته وجدته -كما يقول الأديب مصطفى صادق الرافعي رحمه الله، الذي قضى أياما من حياته في دراسة كلامه صلى الله عليه وسلم-: "قطعا من البيان، فأراه ينقلني من الحالة التي أتأمل فيها روضة تتنفس على القلب، أو منظرا يهز جماله النفس، أو عاطفة تزيد بها الحياة في الدم، على هدوء وروح إحساس ولذة؛ ثم يزيد على ذلك أنه يصلح من الجهات الإنسانية في نفسي، ثم يرزق الله منه رزق النور فإذا أنا في ذوق البيان كأنما أرى المتكلم صلى الله عليه وسلم وراء كلامه".⁴

وبما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأس الفصاحة، ومجمع البلاغة، وذروة البيان بلا منازع، فقد كان يخاطب العرب بلغاتهم على اختلاف قبائلهم بأفصح بيان وأبلغه، ويبدو أن أحاديثه المشتملة على المعاني السامية المؤطرة بإطار بلاغي هي أبرز عوامل سيادة النبي صلى الله عليه وسلم على القلوب، ونجاحه في رسالته مع العرب التي كانت تخضع لسلطان اللسان أكثر من سلطان السنن، لأن الشكل وحده دون الأفكار والمعاني، قالب جامد لا روح فيه ولا حياة لذا نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستخدم هذه الفنون البلاغية لتقريب المعاني السامية إلى أفهام السامعين. وقد حفل كلامه صلى الله عليه وسلم بضروب البلاغة في أعلى مستوياتها وأوضح صورها، ومن مظاهر هذه البلاغة فنون البيان* المختلفة، من تشبيه واستعارة وكناية هذه الفنون التي هي موضوع هذا المقال من خلال نماذج حديثة مختارة.

الحديث الأول: روى الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله في كتاب الشركة من (صحيحه) باب (هل يقرع في القسمة والاستهام فيه) من حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ، مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِينَا حَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَّوْا جَمِيعًا"⁵.

أولاً: التشبيه:

التشبيه أحد علوم البلاغة (التشبيه والاستعارة والكناية) وهو أسلوب من أساليب العرب البيانية وفيه تكون الفطنة والبراعة في التعبير، وإليه يرجع الكثير من جمال الأسلوب وجلاء المعنى، ويعني في اللغة التمثيل، وهو مصدر مشتق من مادة شبه، قال ابن منظور: "الشبه والتشبيه هو المثل، والجمع أشباه، والتشبيه التمثيل"⁶. وفي الاصطلاح: "التشبيه الدلالة على مشاركة أمر لأمر آخر في المعنى"⁷.

هذا الحديث تمثيل عظيم شبه فيه النبي صلى الله عليه وسلم حال الناس وموقفهم مما يكون في المجتمع من منكرات بحال قوم ركبوا سفينة فاقتسموا أماكنهم فيها بطريق القرعة، فكان نصيب بعضهم الجزء الأعلى من السفينة، وكان نصيب الآخرين الجزء الأسفل منها، وكان لا بد لمن في الأسفل من الماء، فكانوا يصعدون لأعلى السفينة ليسقوا الماء، وكان ممرهم بمن في الجزء العلوي منها يؤذيهم، فلما رأى أهل الجزء الأسفل تأذي أهل الجزء الأعلى من السفينة بهم

عزموا على أن يثقبوا في نصيبهم ثقباً يحصلون منه على الماء دون إيذاء من فوقهم، ولم يدر هؤلاء أن هذا الثقب الصغير يؤدي إلى غرق السفينة وهلاك الجميع، ويكون معنى لفظة (أصغر خرق) كما يقول الرافي " أن لفظة (الخرق) يكون من معانيها في البحر القبر والغرق والهلاك".⁸

ويبين النبي صلى الله عليه وسلم في الأخير أن الأمر لا يخلو من أحد نتيجتين: إما أن يقوم من هم في الأعلى بواجبهم في منع هذه الكارثة، وإما أن يتركوهم وشأنهم بدعوى أن هذا نصيبهم يفعلون فيه ما يشاءون، وحينها تكون النتيجة الحتمية هلاك الجميع.

وهذا الحديث هو صورة لحال الناس في المجتمع فإنه لا يخلو مجتمع من صور المنكر والفساد الذي يقدم عليه ضعاف الإيمان بدعوى مختلفة وقد يلتمس بعضهم لنفسه مبرراً فيما يفعل كأن يقول هذه حرية شخصية، وأنا حر أصنع في ملكي ما أشاء، فإن قام أهل الصلاح بواجبهم في إنكار هذه المنكرات، والأخذ على أيدي المفسدين صلح المجتمع ونجا الجميع، وكانت العاقبة حسنة، يقول الرافي: " فكان لهذا الحديث في نفسي كلام طويل عن هؤلاء الذين يخوضون معنا البحر ويسمّون أنفسهم بالمجددين، وينتحلون ضروباً من الأوصاف: كحرية الفكر، والغيرة والإصلاح، ولا يزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا وأدابنا بفأسه، أي بقلمه... زاعماً أنه موضعه من الحياة الاجتماعية يصنع فيه ما يشاء، موجهاً لحماقته وجوهاً من المعاذير والحجج، جاهلاً أن القانون في السفينة هو قانون العاقبة دون غيرها".⁹

وأما إن تقاعسوا عن واجب النهي عن المنكر، فإن العاقبة الإلهية تشمل الجميع مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ (الأنفال: 25). ومصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ".¹⁰

وهو عبارة عن تشبيه تمثيلي، شبه فيه الهيئة الحاصلة من قيام المسلمين بواجبهم في تغيير المنكر، بالهيئة الحاصلة من قيام أهل السفينة بمنع من يريد خرقها من الإقدام على ما يريد، كما شهِت الهيئة الحاصلة من التقاعس عن تغيير المنكر، بحال أهل السفينة إن تركوا من يريد خرقها يفعل ما يشاء.

ووجه الشبه هنا صورة منتزعة من متعدد؛ في الحالة الأولى منتزعة من هيئة النجاة المترتبة على قيام قوم بواجبهم، وفي الحالة الثانية من هيئة الهلاك الناجم عن تقصيرهم فيما يجب عليهم، فكما أن أهل السفينة سينجون إن أخذوا على يد من يريد خرقها، فإن النجاة ستكون مصير الجميع في مجتمع يأخذ أهله على يد العابثين المفسدين، وكما أن الغرق سيكون مصير أهل

السفينة إن تركوا من يريد خرقها يفعل ما يريد، فإن مجتمع المدهنين الساكتين عن أهل المنكر سيؤول إلى هلاك محتم.

ومن مظاهر جمال هذا التشبيه أنه زاد المعنى المراد وضوحا وجمالا، فقد شبه الأمر المعقول وهو حال الناس في المجتمعات بأمر محسوس وهو حال قوم ركبوا سفينة، وهو أمر يمكن إدراكه بالحس، ولا شك أن هذا ادعى لفهم المراد والتأثر به، لأن الصورة الناجحة أو أجود الوصف هي كما قال أبو هلال العسكري: "إن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتى كأنه يصوره لك فتراه"¹¹. فقد كان صلى الله عليه وسلم كما قال عباس محمود العقاد: "كان محمد فصيح اللغة فصيح اللسان، فصيح الأداء، وكان بليغا مبلغا على أساس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية، وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين، بل قدوة المرسلين"¹².

ومن مظاهر جمال هذا التشبيه كذلك هو القدرة الفائقة على الإيجاز، يقول ابن الأثير: "واعلم أن فائدة التشبيه هي الكشف عن المعنى المقصود، مع ما يكتسبه من فضيلة الإيجاز والاختصار"¹³.

ومن مزاياه كذلك التمثيل وإجادة الحوار، وتلك ميزة الرسل، لأن المرسلين في مقام المعلمين، وأحسن السبل في التعليم طريقة التمثيل والمحاورة، فأما التمثيل فهو "ما وجهه وصف منتزع من متعدد أمرين، أو أمور"¹⁴. أي أن تشبيه التمثيل الذي هو تمثيل صورة بصورة ويكون فيه وجه الشبه منتزعا من متعدد، ويتجلى في تشبيه حال الناس في المجتمع بحال ركاب السفينة، وأما المحاورة فقد تجلت في سؤال وإجابة غايتها لفت الانتباه إلى الذرائع التي يستند إليها المفسدون في الأرض، والتأكيد على أن حرية الفرد في المجتمع مقيدة لا مطلقة.

ثم إن هذا التشبيه أقرب إلى القصة التمثيلية، فهو مليء بالحركة والحيوية والمشاهد المتتابعة وتصوير الأمر بهذه الطريقة البديعة يترك في نفس السامع أثرا حيا "وهذا هو البلاغ في التعبير كل كلمة تصل إلى سامعها، وكل كلمة مقصودة بمقدار.

ولا يخفى أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو أفصح البشر لسانا وأبلغهم بيانا وإن كلامه لكما قال الجاحظ: "هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف" وكان كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿... وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التعقيب* واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصود في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حَفَّ بالعصمة، وشُدَّ بالسُّدِّ بالتأييد، ويُسَّرُّ بالتوفيق"¹⁵.

ثانياً: الاستعارة:

الاستعارة في اصطلاح البلاغيين "من المجاز وهي ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له"¹⁶، أو هي اللفظ المستعمل في غير ما وضع له أصلاً لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي. ثم يردونها إلى التشبيه وهي تشبيه حُذِفَ أحد طرفيه، وهي قسمان مكنية وتصريحية.¹⁷ وهي كثيرة في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وقد جاءت في بداية الحديث السابق في قوله صلى الله عليه وسلم: (القائم على حدود الله) وهي استعارة مكنية "فقد حُذِفَ فيها لفظ المشبه به وُزِمَ له بشيء من لوازمه"¹⁸، حيث شبهت فيها المعاصي بؤهدة من وهاد الأرض محدودة بحدود، وحولها رجال يحرسونها، ويمنعون الناس من الوقوع فيها، ثم حذف المشبه به وأُتي بلازمة من لوازمه هي الحدود. ونفس الشيء يقال في قوله صلى الله عليه وسلم: (الواقع فيها).

وهذا تعبير يوحى بمدى الهوة السحيقة التي يهوي إليها أصحاب المنكر، المخالفين لحدود الله، ومدى خطورة الواجب الملقى على عاتق المصلحين في الأمة القائمون على حدود الله، مانعين الناس من السقوط فيها.

ثالثاً: الكناية:

قيل إن الكناية واد من أودية البلاغة وركن من أركان المجاز، وهي عند الخطيب القزويني: "لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ"¹⁹. وقال السكاكي: "الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة"²⁰. وتتميز بدقة وغموض، وهي شكل من أشكال التعمية في الكلام، "وتنقسم باعتبار المكنى عنه ثلاثة أقسام"²¹.

الكناية في قوله (أخذوا على أيديهم): فإن الأخذ على اليد كناية عن استعمال القوة لكف الفاعل عما يريد فعله.

الحديث الثاني: عن أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أُمْسَكْتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ قَفَعَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلِمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ"²².

أما معاني الحديث ومقصوده فهو تمثيل الهدى الذي جاء به صلى الله عليه وسلم (سواء القرآن الكريم أو السنة النبوية) بالغيث، الذي ينزل حال حاجة الناس إليه ثم شبه الناس

المبعوث إليهم بثلاثة أصناف من الأرض. فالنوع الأول من الأرض ينتفع بالمطر فيحیی بعد أن كان ميتا، وينبت الكلاً والزرع فتنتفع بها الناس والدواب والطيروغيرها، وكذا النوع الأول من الناس، تَلَقَّى هذا الهدی وعمل به وبلغه، أي علم وعمل وعَلَّمَ، فهو كالأرض النقية، شربت من الغيث المنزل فحييت بعد موتها، وأخصبت فنفعت الناس والطيروالهائم.

والنوع الثاني من الأرض ما لا تقبل الانتفاع في نفسها، لكن فيها فائدة، وهي إمساك الماء لغيرها، فينتفع بها الناس والدواب، وكذلك النوع الثاني من الناس له قلوب حافظة، لكن ليست لهم أفهام ثاقبة، ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم، أهل للنفع والانتفاع، فيأخذهم منهم، فينتفع به، فهو لا نفعوا بما بلغهم. فهو كالأرض الجذباء استقر بها الماء فنفع الله به الناس شربا وسقيا وزرعا، لكن هذه الأرض لم تحي، فنفعت غيرها دون نفسها.

أما النوع الثالث من الأرض هي السباخ التي لا تنبت ونحوها، فهي لا تنتفع بالماء، ولا تمسكه لينتفع بها غيرها، وكذا النوع الثالث من الناس، ليست لهم قلوب حافظة، ولا أفهام واعية، فقد ختم الله على سمعهم وقلوبهم وجعل على أبصارهم غشاوة، فلم يلتفتوا إلى ما جاء به صلى الله عليه وسلم من هدي وعلم، فهم كالأرض الصماء الملساء المستوية، التي يمر عليها الماء، ويلامس سطحها الخارجي فقط فلا تنتفع، ولا يستقر بها فتنتفع، إذا سمعوا العلم لا ينتفعون به، ولا يحفظونه لنفع غيرهم. وفي هذا الحديث أنواع من العلم منها ضرب الأمثال، ومنها فضل العلم والتعليم، وشدة الحث عليهما وذم الإعراض عن العلم.

و الجدير بالملاحظة في كلامه صلى الله عليه وسلم هو سهولة لغة التشبيه عنده ورقتها بحيث يمكن استخراج عناصر التشبيه في أكثر التشبيهات النبوية بدقة وافية.

الحديث الثالث: عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ، فَقَالَ: "لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ عَلَى مَنْ يَسِرُّهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ. قَالَ: ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾. ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَدُرُوزِهِ سَنَامِهِ، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ

الصَّلَاةُ، وَذُرُوءُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَلِكَ كُلُّهُ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ. فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، ثُمَّ قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ تُكَلِّتُكَ أُمْلَكَ يَا مُعَاذُ. وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ²³.

هذا الحديث من الأدب النبوي الرفيع، تضمن أمرين هامين.

الأمر الأول: مجموعة أسئلة طرحها معاذ ابن جبل رضي الله عنه علة النبي صلى الله عليه وسلم، يريد من خلالها معرفة الطريق المؤدية إلى الجنة المنجية من النار.

والأمر الثاني: هو إجابات الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه الأسئلة، وهي في مجملها ذكر للأعمال التي تنتهي بصاحبها إلى رضا الله عز وجل، لأن طريق الجنة عقيدة وعمل، يبدأ بتوحيد الله وإفراده بالعبودية، ثم الإقبال على أركان الإسلام اعتقاداً وعملاً، بدءاً بإقامة الصلاة المكتوبة على وجهها الصحيح، وإخراج الزكاة المفروضة، وصرفها على مستحقها حسب ما نصت عليه الآية الكريمة ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: 60).

وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام. وهذه هي الأركان التي يقوم عليها الإسلام، وتطبيقها تستقيم حياة الناس الدنيوية والأخروية.

ويدرك الرسول صلى الله عليه وسلم أن صاحبه (معاذ رضي الله عنه) يتوق إلى بيان أكثر، فيزيده على ذكر الفرائض النوافل التي تقرب الإنسان من أبواب الخير، وتدينه من ربه: فصوم التطوع جُنَّةٌ يقي صاحبه من عذاب النار، ويحفظه من كل مكروه، والصدقة تكفر الذنوب، وتطهر النفس، وتداوي جراح البائسين، والتهجد في وسط الليل والناس نيام، يجلو الروح ويقرب العبد من ملكوت السموات.

ويتبين الرسول أن معاذ لم يشفَ غليله فيزيده من هديه، فقال له: أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَعْظَمِ شَيْءٍ فِي الدِّينِ؟ إنه الإسلام لله وإفراده بالألوهية، وتخصيصه بالعبودية، وإقامة الصلاة التي هي الصلة الروحية بين العبد وربّه، والجهاد في سبيل الله لأن الجهاد هو البرهان على أن المسلم باع نفسه للباري الذي اشتراها منه بالجنة.

ويستمر الرسول صلى الله عليه وسلم محذراً معاذ من إطلاق العنان للسان له لأن كثيراً من الناس يكبون على وجوههم في النار بسبب إطلاق ألسنتهم بالغيبة والنميمة والوشاية وفضح عورات الناس وهتك أعراضهم.

أولاً: التشبيه:

تتجلى في هذا الحديث ملكة الرسول صلى الله عليه وسلم في صوغ العبارات البليغة والجميل البديعة، ففي قوله: (الصَّوْمُ جُنَّةٌ) تشبيه بليغ حُذِفَتْ منه الأداة ووجه الشبه، جاء في عبارة قصيرة تستوعبها الذاكرة في يسر، وتجسد الثواب الذي يناله الصائم تجسيدا محسوسا، إلى حد يتخيل فيه الإنسان أن ثواب الصوم ستاراً أو وقاء يقف بين المرء وبين النار ينافح عنه ليهبها.

ثانياً: الاستعارة:

كما اشتمل الحديث السابق على استعارتين جميلتين لِنَتَأَمَّلَ العبارة (وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ) فهي استعارة مزدوجة غايتها الإقناع، ووسيلتها في ذلك تجسيد المعنوي وتقديمه في شكل محسوس، فقد شبه الصدقة بالماء والخطيئة بالنار، وحذف المشبه به (الماء، النار) وجاء بقرينة دالة عليهما هي (تُطْفِئُ) على سبيل الاستعارة المكنية.

أما الاستعارة الثانية فهي قوله صلى الله عليه وسلم: (وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ) فقد شخّص الليل الذي هو أمر معنوي بشيء مادي، وحذف هذا الشيء المادي وجاء بقرينة دالة عليه هي (جوف). وفي هذا تشخيص للمعنوي في صورة مادي محسوس وبذلك تقترب الصورة من الذهن وترسخ فيه.

ومن الاستعارات الجميلة قوله صلى الله عليه وسلم: عن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " أَكْثَرُوْا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَاتِ"²⁴.

فقد استعار النبي صلى الله عليه وسلم (هادم اللذات) للموت، وهي استعارة مزدوجة لا تقف عند حد المشابهة بين هادم اللذات والموت، بل تتعداها إلى التشخيص الذي يجسد الأمر المعنوي (الموت) (اللذات) ويقربه في صورة مادي، فالموت يتجسد أمامنا في صورة شخص يهزم اللذة التي تتجسد أمامنا في صورة بناء ويقضي عليهما.

ومن مظاهر بلاغة وجمال أسلوب هذا الحديث إضافة إلى حسن التصوير: وضوح اللغة، ويسر الأسلوب الناتج عن الجمل ذات التركيب السهل والعناصر المرتبة ترتيباً مألوفاً، واعتماده على الحوار الذي جرى بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين صاحبه معاذ بن جبل رضي الله عنه، وقد تراوح بين الطلب من جهة معاذ، وبين الإجابة التقريرية من جهة النبي صلى الله عليه وسلم.

كما اشتمل الحديث على دعاء (فَقَالَ تَكَلَّمْتُكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ). ومعناه فقدتكم أمك. أي هلكتم، ولكن الرسول لا يقصد هذا وإنما قصد التعجب من غفلة معاذ من جهة وتعظيم خطورة حصائد الألسنة من جهة ثانية.

وسر بلاغة الاستعارة هو بلاغتها من ناحيتين، الأولى حسن تأليف اللفظ بتناسي التشبيه وحمل المخاطب على تخيل صورة جديدة حية رائعة. وأما الثانية هي الابتكار وروعة الخيال وما يحدثه من أثر في نفوس السامعين.²⁵

مما سبق يتضح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحدث بطريقة رائعة لم يألف العرب مثلها، قال أوس بن حبيب الضبي العالم بالأدب وإمام نحاة البصرة في عصره: "... ما جاءنا من أحد من روائع الكلام ما جاءنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم".²⁶

وأن الرسول صلى الله عليه وسلم يؤدي الكلام بطرائق مختلفة، فقد يضعه في صورة رائعة من صور التشبيه، أو الاستعارة أو الكناية، فيأتي بليغا جدا مع أنه لم يقصد فيه إلى ذلك قال الأستاذ عباس محمود العقاد: "كان محمد صلى الله عليه وسلم فصيح اللسان، فصيح الأداء، كان فصيحاً مبلغاً على أسس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية، وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين".²⁷

وهذا هو السر وراء نفوذ كلامه صلى الله عليه وسلم إلى عقول مخاطبيه، وتأثيره في نفوسهم، وحد البلاغة أن يصل المتكلم بكلامه إلى التأثير في عقل السامع وقلبه.

الهوامش:

- 1- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) البيان والتبيين ج4، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط5، 1985، ص29
- 2- مصطفى صادق الرافعي: مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان 2005، ص195.
- 3- ابن الأثير (أبو الفتح ضياء الدين) لجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق مصطفى جواد وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1375هـ، 1956، ص45.
- 4- الرافعي (مصطفى صادق): وحي القلم ج3، دار مصر للطباعة والنشر، سعيد جودة السحار وشركاؤه، 2000، ص6-7.
- *- البيان: هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه. ص 163. ينظر: الخطيب القزويني (جلال الدين محمد بن عبد الرحمان)، الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبدیع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ - 2003، ص163.

- 5- البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) صحيح البخاري، كتاب الشركة (باب هل يقرع في القسمة؟ والاستفهام فيه)، طبعة جديدة مضبوطة ومفهرسة، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سوريا، (د ت)، ص 604.
- 6- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين): لسان العرب، مادة (شبه) ج 5، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 3، 1414 هـ، ص 23.
- 7- الخطيب القزويني (جلال الدين محمد بن عبد الرحمان)، الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1424-2003، ص 164
- 8- الرافعي (مصطفى صادق): وحي القلم، ج 3، ص 8.
- 9- المرجع نفسه، ص 7.
- 10- الترمذي (الإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى): الجامع الكبير، كتاب الولاء والهبة، باب (ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر: رقم 2168) حققه وعلق عليه: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1996، ص 40.
- 11- العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله): الصنائع الكتابية والشعر، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1981 ص 128-129.
- 12- العقاد (عباس محمود): عبقرية محمد، دار نهضة مصر للطبع والنشر (د ت)، ص 78.
- 13- ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنثور، ص 90.
- 14- الخطيب القزويني (جلال الدين محمد بن عبد الرحمان)، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 190.
- *- التقعيب كالتعجير، وهو أن يتكلم بأقصى قعر فمه.
- 15- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، ج 2، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر، 1985، ط 5، ص 16-17.
- 16- الخطيب القزويني (جلال الدين محمد بن عبد الرحمان)، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 212.
- 17- ينظر: على الجارم ومصطفى أمين: البلاغة الواضحة، ط 10، دار المعارف بمصر، 1964م، ص 77.
- 18- المرجع نفسه، ص نفسها.
- 19- الخطيب القزويني (جلال الدين محمد بن عبد الرحمان)، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 241.
- 20- المصدر نفسه، ص 248.
- 21- على الجارم ومصطفى أمين: البلاغة الواضحة، ص 123.
- 22- البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) صحيح البخاري، كتاب العلم (باب فضل من علم وعلم رقم 79)، ص 32-33
- 23- النووي (محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف): رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص 551-552. رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.
- 24- النووي (محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف): رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، ص 264.
- 25- على الجارم ومصطفى أمين: البلاغة الواضحة، ص 105-106.
- 26- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، ج 2/17.
- 27- العقاد (عباس محمود): عبقرية محمد، ص 78.